

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الأول

— ٤ —

مصادر الأخبار :

وإن المصادر الرئيسية الهامة التي تدور حول سبأ وحمير لم ي (أولاً) تلك المسماة بالنقوش الحميرية ، و (ثانياً) الأحاديث المنقولة في الغالب عن الأساطير والتي أبقاها لنا الأدب الاسلامي . وبالرغم من أن اللغة العربية الجنوبية قد ثبتت أقدامها في بعض الأماكن الجنوبية القاصية حتى عهد النبي أو بعده بقليل ، إلا أنها أخذت تضمحلّ من أمد بعيد بتقوى لغة الشمال الجزلة الرائجة ثم أخذت منذ ذلك الحين تبسط سلطانها دون أن نجد لها منافساً في رحاب شبه الجزيرة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة السابقة لم تتلاش نهائياً . وقد حدث في القرن السادس الميلادي أن أناخ راكب بدوى بعيره وأخذ يتفرس في دهشة في بعض نقوش غربية على حائط صخري ، وقارن بين هذه النقوش العجيبة التي كاد الدهر أن يطمس معالمها وبين البقايا غير الواضحة تماماً للأراضي المجاورة ، التي كانت تفيض بالذكريات الجليلة . ويسمى المؤلفون المسلمون هذه الخطوط بالسند ، وإن قليلاً من المسلمين كانوا يستطيعون قراءة حروف هجاء العربية الجنوبية ، بل كانوا ذرى دراية بعبادى وتواعد علم الأملاء أيضاً ، وهذا يظهر لنا بجلاء من عبارة وردت في الكتاب الثامن من الاكليل للحمداني ، ومع أنهم قد استطاعوا تفسير أسماء الأعلام والتعرف إلى مدلول الكلمات ، إلا أنه لم تكن لديهم معلومات ثابتة عن اللغة نفسها ، وسأشرح فيما بعد كيف كشفت هذه النقوش مرة ثانية بفضل بعض الرحالة الأوربيين ، وكيف فسرت وأوتت حتى غدوا على بيعة منها قادرين على أخذها أساساً للبحث التاريخي ، وما هي النتائج التي جنوها من دراستهم لهذه الناحية ؛ ولكن قبل أن نأخذ في شرح ذلك أرى من الضروري أن أقول لماذا استعملت لفظ « العربية الجنوبية » أو « السبئية » القليل التداول بدلاً

فقد عاد عليه بفوائد كثيرة في مواطن كثيرة . منها هذه المقاومة النسيئة والمجاهبة التي يطفح بها شعره ، وقد كان أولى بهذا التشاؤم أن يعود إلى ما قاد المرى إليه برغم أن المرى لم يُبل في الحياة والأصحاب بمنزل ما ابتلى به النبي

هذا الجانب من جوانب النبي أعجب به وأعتر به لأنه علامة من علامات الرجولة المسوخة في هذا الجيل ، تصون عزتها ولا تنسى أن تبرز بذاتها إزاء كل ذات مهما تنهت عظمتها ، وهل تستطيع أن تجمد قصيدة لم يطبعها النبي بذاته ؟ بل هل كان النبي قادراً على التجرد من ذاته ؟ ألا تراه يتشفي في كل مقطوعة بذاته ؟ ويحن إلى غايته ويطلب هام اللوك والخلاتن وينقض على الزمان براغمه وعلى الحظ بصاوله ، ولعل النبي أول شاعر قام بمحاول إخضاع الحظ والناس لموازين العقل والذكاء

ولعل أصحابنا النقاد يرون مفاخر في النبي ، فيأخذون عليه رياءه ومبالفته وتقلبه ، ويتخذون موقفه مع كافور حجة على غدره وتقلبه . ومثل هذا النقد صدق يشهد به النبي وأشعاره ، ولكنني أعتقد أن هذا الرياء الذي تنقم عليه الأخلاق لم يكن إلا رياءً فنياً — والرياء الفنى يفر كل شعرنا وأدبنا ولا يزال ... ولو كان من نوع ذلك الرياء اللين لكان لصاحبه شأن مع رجال الأحكام . وإن شخصيته المتجردة من شعره كانت شخصية عنيفة قاسية لا تهوّد في عزتها . الأمر الذي يدل على أن رياءه هو الرياء الذي تواضع عليه شعراء ذلك العصر وأدباؤه وتقبلوه ولم يستنبحوه

حياة زاخرة بالأهوال والآمال كلما صدع لها الدهر أملاً زادت حزمًا وعزماً ، غير مستعظمة إلا نفسها ولا قابلة إلا لخالتها حكاماً ؛ حياة تود أن تنفصل عن الناس لتتصل بالناس ، وذات لم يترك لها الدهر مجالاً للنظر في غير ذاتها ، في شعرها أثر عصرها وبيئتها ، وفي شعرها أثر العصور . ولعمري إن هذا هو الأدب الحلي الذي تتوق إليه الآداب العالمية اليوم ، أدب ترسم فيه الرسالة القومية والرسالة الانسانية ...

ما أقرر أدبنا الحاضر على غناه إلى متنبى جديد يفيض قوة وعزيمة على رغم تشاؤمه ؛ ولعله إذا عاد يغير شيئاً في رسالته ويجعلها رسالة قوية يفرضها فرضاً بقوة البيان شاعر ذو كبرياء وسلطان ، على شعب مريض أصبح السائر لا يسير بينه إلا بألف ترجان

فليل هندي

(بر الزور)

وبهذا ضاعت فرصة عظيمة ، ولكن الدهشة عادت ثانية إذ اكتشف البحاثة Ulrich Jasper Seetzen عام ١٨١٠ عدة خطوط في جوار ظفار ونسخها بيده ، ولكن ما يؤسف له أن السرعة التي لازمت المكتشف جعلت النسخ غير متقن الضبط تماما . وقد اشترى أيضا رسما أخذه معه وانكب عليه في أوقات فراغه ناسخا إياه ، وبغير أن جهله للروح الأصلية أوقعه في عدة أخطاء في الحروف ، وبذلك لم تكن النتائج التي توصل إليها ذات قيمة ^(١) تذكر . وإن أول منسوخات قيمة للنقوش المربية الجنوبية وصلت إلى أوروبا على أيدي الضباط الانكليز المشتغلين بحراسة الشواطئ الجنوبية والغربية لبلاد العرب وفي سنة ١٨٣٨ طبع الليبتنانت ج . ر . ولستد نقوش حصن الغراب ونقب الحجر في كتابه المسمى Travels in Arabia

وإذا ذك خطا أميل روديجر أستاذ اللغات الشرقية بجامعة هل (اعتادا على مخطوطين في مكتبة برلين الملكية جمعت فيهما كل حروف الهجاء الحيرية) خطا أول خطوة في سبيل الكشف الصحيح ، فدحض الفكرة القائلة بأن خط المربية الجنوبية يجري من اليسار إلى اليمين ^(٢) ، تلك الفكرة التي أقرها « دى ساسي » وصادفت قبولاً عاما ، كما أظهر روديجر أكثر من ذلك أن آخر كل كلمة كان ينتهي بخط عمودي ^(٣) ، وإن نقوش ولستيد و Hulton و Cruttenden قد ألفت بصيصاً من النور على صنعاء ، وفسر رموزها Gesenius و روديجر كل منهما مستقلاً عن الآخر عام ١٨٤١ م

= الجنوبية حتى سنة ١٨٤١ يمكنه مراجعة ما كتبه Rödiger عن هذا الموضوع Excurs ueber Himjaritische Inschriften في ترجمته الألمانية لكتاب ولستد المسمى : Travels in Arabia ج ٢ ص ٣٦٨ وما يليها (١) وقد طبعت نقوش جاسبر سيترن في المجلد الثاني (ص ٢٨٢ وما يليها ثانيا ١٨١١) في Fundgruben des orientis أما المشار إليه أعلاه فقد فسرهما نيا بعد Mordtmann في Zeitschrift der Deutschen Morgenländ-is-chen Gesellschaft

المجلد ٣١ ص ٨٩ وما يليها

(٢) ولو أن أندم النقوش تجري من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال على الصواب

(٣) Notiz ueber die himjaritische Schrift nebst dop-peltem Alphabet dersellen

(٤) Zeitschrift für die Kunde des Morgen-landes, Vol. I (في) (Göttingen, 1837), P. 332 sqq.

من « المخطوط الحيرية » و « اللغة الحيرية » : ذلك أن كلمة « حير » ليست دقيقة إذا أردنا بها لغة هذه النقوش أم النقوش ذاتها ؛ أما من ناحية اللغة فلم تكن خاصة بأهل حير ، بل كان يتكلمها كل قبائل اليمن المختلفة وأهل سبأ ومعين أيضاً ، وإن اختلفت اللهجات في كل جهة عن الأخرى . وقد أطلق المسلمون على لغة اليمن القديمة اسم « الحيرية » لسبب بسيط ، ذلك أن الحيريين كانوا أقوى جنس سكن هذه البلاد خلال القرون الأخيرة السابقة لظهور الاسلام . ولو كانت جميع الآثار المكتشفة ترجع إلى عصر السيادة الحيرية لسمنا عنها في شيء من اليقين فيمن خلفهم ، ولكن الحقيقة هي أنها ترجع إلى عهد صحيح أيام المصور الأولى التي يرجع بعضها إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، وربما كان قبل تأسيس الإمبراطورية الحيرية بألف عام ، كما أن لفظ « سبئي » لا يوضح القصد تماماً لأنه يثقل استعماله لاسم شعب أكثر من أن يكون لقباً سياسياً ، وعلى كل فاني أفضل لفظ « عرب الجنوب » على كل ما عداه

ومن أول رواد البحث والتنقيب في بلاد اليمن العالم كارستن نيبوهي Carsten Niebuhr الذي قام بدافع نفسه وللذمة الخاصة بأمانة اللثام عن النقوش . وقد طبع عام ١٧٧٢ م كتابه المسمى Beschreibung Von Arabien وقد رن صدى اكتشافاته في مجامع أوروبا العلمية ورجح الظن بأن حير وجدت في بقايا مدينة شهيرة باسم ظفار ^(١) وفي ذات مرة لقبه أحد المولنديين الذين اعترفوا الدين الاسلامي وأطلعه على نسخة من النقوش جمعت كل الحروف الهجائية التي لم تكن معروفة من قبل ، ولكن — كما يقول — « أصابني حى عنيفة في تلك الآونة ، وكنت أستمد بين كل لحظة وأخرى للموت أكثر مما أعد نفسي لجمع النقوش القديمة ^(٢) »

(١) يقول ياقوت الحموي في (معجم البلدان ج ٤ — ص ٨٦) : « ظفار هي صنعاء نفسها ، ولعل هذا كان قديما . وأما ظفار المعهورة اليوم فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند بينها وبين مرياط خمسة فراسخ » ويقول أيضا « وهي مدينة باليمن في موضعين : أحدهما قرب صنعاء وبها كان مسكن ملوكهم » وتذكر على سبيل الأدب مارواه ياقوت أيضا من أنه وجد على أركان سور ظفار مكتوبا « لمن ملك ظفار ؟ لهبشة الأفرار . لمن ملك ظفار ؟ لفارس الأخيلا . لمن ملك ظفار ؟ لحير ستجار » أي سترجع إلى اليمن (للترجم)

(٢) Beschreibung von Arabien, p. 94 ولكي يفهم القارىء على مبلغ التقدم العظيم الذى حدث في سبيل كشف وحل مخطوط المربية =

الحاكمة — وكانت تخلع عليهم الألقاب للأبهة ، وقد نجد كثيراً من هذا في ذَمْرَ عَلِيٍّ ذِرْبِخ (الفخم) وَيَتَمَسَّرُ بَيْنَ (١) (السامي) وَكَرْبَيْعِيلَ وَتَارِيَهُنِّمَ (أي العظيم المناسح) وسهملي بنوف . أضف إلى هذا أن الملوك كانوا يحملون ألقاباً عدة في المراسلات تنبئ عن عصور ثلاثة في تاريخ البلاد العربية كمكرب سبأ أو ملك سبأ وملك سبأ وريدان ، وبهذه الطريقة يمكننا أن نحدد على وجه التقريب عصر المباني والنقوش المختلفة ، وأن نظهر أنها لا تنتمي إلى العصر المسيحي ، ولكنها تسبقه أحياناً بثانية قرون على الأقل

وإن البون التاسع الذي يفصل بين قوم سبأ وحير المحبين للتجارة والسلام وبين العرب الهمج الذين بعث فيهم محمد (صلم) ليظهر على أشده في خضوع الأولين لأهلهم التي تعد أساس الآثار الجنوبية العربية كما ذكر ذلك جولد زيهير (٢) . فكان الأمير يشيد معبداً للالهة شكراً لنصرها إياه على أعدائه ويبارك الكاهن أبناءه ويمتلكه ؛ أما المحارب الذي فاز بقتل أعدائه أو بالأسلاب أو بنجانه من النية فيقدم فروض الشكر ويتوسل في ضراعة أن يكون على الدوام متقبلاً في أعطاف رعايتها . وكانوا يعتقدون أن الموت يمشون سمداء تحت رحمة الآلهة كما كانوا يقرؤونهم بل ويعيدونهم أحياناً (٣) ، وإن العبارة التالية التي ترجمها الكولونيل W. F. Prideaux لى أوضح مثال على هذا وهي :

« لقد تقدم سعد الله وبنوه بنو مرند بهذه اللوحة إلى مَقَّةَ هِرَّانَ (سيد الأوام ذو عِرَّان ألي) الذي تفضل بإعطاء الرجاى الرفوع إليه حينما أهدى إليه بنو هِرَّانَ أول ثمار أرض أَرَهَقَمَ وان مَقَّةَ هِرَّانَ قد تعهد بحماية سهول ومرامح هذه القبيلة في مساكنهم لقاء ما يقدمونه إليه من الهدايا الكثيرة طول العام ، والحق أن أبناء سعد الله سينزلون أرض أَرَهَقَمَ وسيقربون الضحايا في حرى عشرت وشمس وسيكون هناك قربان آخر في هِرَّانَ (وكلا العمليين بنية أن يتكفل حرَّوت بحماية

وتقاومت إنجلترا وألمانيا نخر الكشف عن هذه النقوش ، ولكن لم تكند تضي بضع سنين حتى كانت فرنسا مالتهم ، وسرعان ما مضت قدماً في هذا السبيل ونكلت بحوشها بالفوز العظيم ونالت قصب السبق . وفي عام ١٨٤٣ بدأ توماس أنرود T. Arnaud التنقيب والبحث بادئاً من صنعاء ، ونجح في الكشف عن بقايا مأرب مدينة سبأ القديمة الشهيرة ، ولم يعبأ بتقهقر صحته ، بل نسخ ما يقرب من خمسين أو ستين مخطوطاً نشرت بعد ذلك في الجريدة الآسيوية Journal Asiatique وقد عثر في أسيندر على مترجم ماهر (١) ، وفي سنة ١٨٧٠ تنكر العالم اليهودي Josph Halévy واخترق « الجوف » شرق صنعاء التي لم يخترقها أوربي قبله منذ سنة ٢٤ ق م حينما قاد Aelius Gallus جيشاً رومانياً من نفس الطريق ، وقد توصل هذا المكتشف إلى نتائج أكثر أهمية بمد أن لاقى كثيراً من المتاعب والأهوال الخطرة ، ثم تمكن هاليفي أن يعود بمد أن نسخ قرابة سبعائة مخطوط (٢) ، وفي أثناء ربيع القرن الأخير جمع E. Glasser و Julius Euting أشياء أكثر أهمية بينما انكباب براتوريوس وهاليفي وميلتر وموردتمان وغيرهم على البحث أزيد معلوماتنا عن لغة وتاريخ وديانة عرب الجنوب في العصر السابق للإسلام

ولا يمكن القول بأن هناك دقة ما سواء في أسماء الحكام الحيريين — كما يظهر ذلك مما كتبه المؤرخون المسلمون — أم في الترتيب الذي جرت عليه في وضعها ، ولو كان هؤلاء أشخاصاً تاريخيين لكان لهم ذكر فيما بعد ، والأرجح أنهم كانوا أسماء غير ذوى أهمية أرجعهم القصص إلى العصر القديم وخامت عليهم نعوت العظمة ، وعلى من يتوره الشك في هذا أن يقارن الصحف الحديثة بتلك التي استنبطت من النقوش (٣) وقد جمع د . ه . مولير أسماء ثلاثة وثلاثين ملكاً من ملوك سبأ ، كما تكرر كثيراً ورود بعض الأسماء — وهذا دليل على قيام الأسر

Arnaud : Relation d'un voyage à Mareb (Saba) (١) dans l'Arabie méridionale (Journal Asiatique)

في المجلة الآسيوية المجموعة الرابعة ج ٥ (١٨٤٥) ص ٢١١ وما يليها ، ص ٣٠٩ وما يليها

Rapport sur une mission archéologique dans le yémen (٢)

في الجريدة الآسيوية المجموعة السادسة ج ١٩ (١٨٧٢) ص ٥ — ٤٩٨ ، ١٢٩ — ٢٦٦ ، ٤٨٩ — ٥٤٧

D. H. Müllr : Die Burgen und Schlösser Südarabiens (٣)

S. B. W. A. Vol. 97, p. 931 seq (ن)

(١) راجع الرسالة للعدد الماضي من ١٨٤٧ عمود رقم ١ هامش رقم ٣ (المترجم)

Goldziher : Muhammedanis-che Studien, Part I, p. 3. (٢)

F. Praetorius : Unsterblichkeitsglaube und Heiligen- verehrung bei den Himyaren (٣)

في Z. D. M. O. المجلد ٢٧ ص ٦٤٥ وقد ذكر Hubert Grimme

تفصيلاً وافياً عن الآراء الدينية وعادات العرب الجنوبيين في :

Weltgeschichte in Charakterbildern. : Mohammed (Munich, 1904) p. 29 sqq.

أسعد تبع الى عهد ذى نواس
 الكتاب السادس : بخصوص العهد الأخير حتى ظهور
 الاسلام
 الكتاب السابع : نقد البدع الفاسدة والروايات الكاذبة
 الكتاب الثامن : القلاع والمدن والقبور التي شيدها
 الحميريون وشعر علقمة^(١) والمراني والنقوش وغيرها
 الكتاب التاسع : يتضمن حكم الحميريين وأمثالهم في
 اللغة الحميرية وأحرف هجاء النقوش
 الكتاب العاشر : بخصوص نسب قبيلتي حاشد وبقيل
 (كبيرتي قبائل همدان)
 (تبع)
 ترجمة محمد مهدي

(١) هو علقمة بن ذى جندن الذي اقتبس كثيراً من شعره في شرح
 القصيدة الحميرية

حقول بني مرشد ، والتفضل بديع شكواهم) وكذلك تقرب
 القرابين في معبد مقه حرّوت ، وبمقتضى ذلك يهبأله المحافظة
 عليهم بناء على السنة التي اتبع نهجها سعد الله والتي شاهدها
 في معبد مقه النعمان ، أما مقه هرّان فقد وقى أرض أرقم
 الخصبه من الصقيع والطواري أو بعبارة أخرى من البرد
 القارس والحر اللاذح^(٢) »

وقبل أن أختم هذا البحث القائم على البيان الناقص عن
 نقوش العربية الجنوبية لا بد لي من أناشد فطنة قرائي الذين
 يملون كم يكون من الصعب أن يكتب المرء بوضوح ودقة عن
 موضوع ليست مصادره الأولى في متناول يده ، خاصة إذا كانت
 نتائج البحث السابق تنقض على الدوام بيد العاملين الحديثين في
 نفس الميدان

ومن حسن الطالع أن يكون تحت يدينا مرجع دقيق واف
 لتلك البقايا القليلة الناقصة ؛ فملوماتنا عن جغرافية بلاد العرب
 الجنوبية وعن الآثار والتاريخ القصصى مستقى جلها من كتابات
 شخصين من أهل اليمن تفيض كتابتهما بالحلمة للعهد القديم
 والفخر به ، وتعتبر أقوالهما — التضاربه بين الحق والخرافة —
 من وجهة النظر الحاضرة — عملاً له قيمته ، وهذان الكاتبان
 هما حسن بن أحمد الهمداني ونشوان بن سعيد الحميري ، وفضلاً عن
 كتاب جغرافية العرب القيم المسمى « صفة جزيرة العرب »
 الذي طبعه د . ه . مولير ، فقد ترك لنا الهمداني كتاباً عظيماً
 آخر في تاريخ اليمن وآثارها ، ذلك هو « الاكليل » وينقسم
 إلى عشرة كتب هذا بيانها^(٢)

الكتاب الأول : موجز تاريخ أصل الانسان ونشأته

الكتاب الثاني : تاريخ نسب الهميسع بن حمير

الكتاب الثالث : بخصوص صفات تحطان الممتازة

الكتاب الرابع : بخصوص العصر الأول من التاريخ إلى

حكم تبع أبي بكر

الكتاب الخامس : بخصوص العصر المتوسط من عهد

Transactions of the Society of Biblical Archaeology, (١)
 Vol. 5, p. 409

(٢) نقل هذا الجدول : د . ه . بيلر في (Südarabische Studien)

ص ١٠٨ هامش رقم ٢) من الصفحة الأولى من مخطوط الكتاب الثامن من
 الاكليل الموجود في المتحف البريطاني ولا يعرف أن هناك نسخة كاملة من
 هذا الكتاب ، ولكن بعض أجزاء كبيرة منه محفوظة في المتحف البريطاني
 وفي مكتبة برلين الملكية

بجته التأليف والترجمة والنشر

شرح الاستاذ

الجزء الثالث

للاستاذ

إبراهيم

يبعث في عقائد الفرق الدينية في العصر العباسي
 الأول من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج ، كما يبحث
 في التاريخ السياسي لكل فرقة وفي أدبها
 يقع في نحو ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه
 عشرون قرشاً عدا أجرة البريد
 ويطلب من لجنة التأليف ومن الكتاب الشهيرة